شَرْحُ كِتَابِ أَعْلَامُ الْسُّنَّةِ الْمَنْشُوْرَةِ لِلْحَكَمِيِّ

– رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى –

لِفَضِيلَةِ الشّيْخِ أُسَامَة بْنُ عَطَايَا العتيبِي

–حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى –





دروس معهد البيضاء العلمية

الدورة الثالثة

تفريغ: طالبات معهد البيضاء العلمية

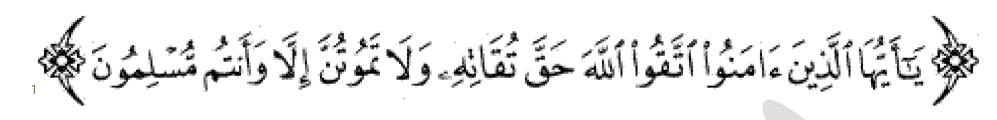
1431هـ - 1432هـ





بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيم

إن الحمد الله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.


﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾[3]

أما بعد،

فإنّ أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم– وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

فما زلت معكم في التعليق على كتاب أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، المشهور بكتاب 200 سؤال وجواب في العقيدة الإسلامية للشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي – رحمه الله تعالى– المتوفى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية،

وصلنا في الدرس الماضي عند السؤال الحادي والتسعين بعد المئة فيما يتعلق بانقطاع التوبة و كان الدرس الماضي حول التوبة و أنها تكفر جميع الذنوب صغيرها و كبيرها وما هي التوبة النصوح ؟

وذكرت بالأمس عرضا" ما يتعلق بتوبة المبتدع و ذكرت أن المبتدع إذا تاب و صدق في توبته بينه

1 - آل عمران :102
2 - النساء :1
3 - الأحزاب : 70-71

وبين الله فالله – جلا و علا – يقبل توبة التائبين اذا صدقوا و نصحوا في توبتهم ،و أهل العلم رحمهم الله قد فرقوا بين بعض الناس في قَبول توبتهم ،و هذا التفريق إنما هو في قَبول التوبة عند الناس قَبول توبتهم في الظاهر أما في الباطن وما بين المبتدع و بين ربه فلا سلطان لنا عليه و لكن في الظاهر و التعامل بين الناس فهذا يحتاج إلى تفصيل

- أربعة أجناس اختلف العلماء في قبول توبتهم :

والعلماء رحمهم الله اختلفوا في قبول توبة ثلاثة أجناس من الناس وأصناف ،وكذا صنف رابع ملتحق بهم

الصنف الأول : وهم أهل البدع الذين ثبت ابتداعهم وخروجهم عن السنة ،كالخوارج والمرجئة والرافضة والتشيع و الاعتزال وكذلك ما يلحق بها من البدع سواء انتسب لهذه الفرق أم لم ينتسب ، إذا ثبت أنه مبتدع عيناً.

الصنف الثاني: الساحر فهل تقبل توبته أم لا ؟

والصنف الثالث: الزنديق الذي تكررت زندقته .

والصنف الرابع: هو الذي يتعلق به حق آدمي ويستوجب هذا حق آدمي لا نستطيع استيفاء عفوه أو معرفة عفوه عنه هذا الصنف الرابع .

- توبة الساحر :

أما الصنف الأول وهو توبة الساحر إذا ثبت عن فلان أنه ساحر وأنه يستخدم الشياطين ويكتب الكتابات مبهمة المعاني والألفاظ ، فهؤلاء من العلماء من قال لا تقبل توبته ،بمعنى أنه يقتل ولا يقبل أنه تاب وأنه استغفر وأنه أسلم خلاص ،هذا لا يؤمن على دين ولا يؤمن على دنيا غير مؤتمن ، فمن العلماء من قال يقتل الساحر بسيف ولي الأمر على كل حال سواء أعلن توبته أو لم يعلن ،لأن السحر أمر باطن ويستخدم في الظاهر ولكن لا ندري في باطنه هل تاب أم لا ، فقالوا من باب الاحتياط ومن باب حماية



المجتمعات من السحرة واتباعا لفعل الصحابة الأكابر الذين قتلوا السواحر ولم يستتيبوهم فقالوا إنه يقتل هذا الأمر الأول يعني هناك توبة عند أهل العلم لا تقبل لأنه لا يمكن الاستبيان من حاله

- شروط رب – العزة والجلال في قبول التوبة :

والله – جل وعلا – شرط في قبول توبة بعض المذنبين خاصة الذين يكتمون موجب كفرهم والله – جل وعلا – يقول : قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾[1]

فهذه شروط للتوبة نص عليها رب – العزة والجلال – في كتابه الكريم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾[1] ثلاثة أمور

أولا : التوبة وهذا بينه وبين الله ندم ،عزم ،إخلاص وإقلاع

ثانيا : الإصلاح إذا كان قد أفسد

الثالث : البيان والتوضيح للناس وأن نأمن أننا قد استبنا حاله وعرفنا أنه تاب توبة حقيقية نأمن فيها على أنفسنا وعلى ديننا وعلى الناس

[المتن]

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي – رحمه الله – : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندما وإقلاعا وعزما على عدم المعاودة وأصلحوا ما فسد من أعمالهم فلا يكفي ترك القبيح

---

[1] - البقرة : 160

حتى يحصل فعل الحسن ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضا حتى يبين ما كتمه كما في المبتدع يبين أنه كان مبتدع ويُبدي ضد ما أخفى فهذا يتوب الله عليه لأن توبة الله غير محجوب عنها فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه لأنه التواب أي الرجَّاع على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا الرحيم الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأنابوا ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفا وكرما هذا حكم التائب من الذنب وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾[1] إلى آخر كلامه – رحمه الله –

- توبة الزنديق :

وكذلك اختلف العلماء في توبة الزنديق الذى تكررت زندقته ورِدته وتكررت توبته ، فرجل يُظهر الزندقة الطعن في القرآن مثلاً ،ثم يقول : أنا تبت ، ثم بعد ذلك يرجع إلى عادته من الطعن في الدين والكلام بالكفر بين جلسائه وخاصته ثم يُكشف فيتوب ، ثم يعود فهذا زنديق تكررت زندقته ، فمن العلماء من قال : لا تُقبل توبته ، ومنهم من قال : تقبل توبته ، بمعنى أننا إذا تكرر زندقته هل نقبل توبته ونعفو عنه ونجالسه وكذا ؟ أم أننا نقيم عليه الحد ويقتل لأنه زنديق ولا تقبل منه التوبة والإسلام الذى يُظهره ؟ خلاف .

- توبة من تعلق ذنبه بحق من حقوق العباد:

الأمر الثالث أيضـاً عندنا المبتدع وعندنا الساحر وعندنا الزنديق الذى تكرر زندقته ، هؤلاء ثلاثة .

الصنف الرابع و الذى له حق لا نستطيع أن نعرف هل صاحبه يعفو أم لا ؟ كقاتل النفس والمستهزئ بالرسول – صلى الله عليه وسلم – أو شاتم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو شاتم

[1] - البقرة : 161

الميت الذى لا يستطيع استيفاء الحق منه ، فالإنسان إذا تعلق بذمته حق لأناس موتى فهؤلاء لو تاب واستغفر لهم حقوق يستوفونها يوم القيامة ولو تاب واستغفر هذه حقوق للعباد ، لذلك الذى يغتاب أوجب عليه الشرع أن يتحلل لماذا ؟ لأن هذا الحق للعبد أنت اغتبت وتبت يتوب الله عليك ، لكن بقى حق للعبد فلا تكن إلا بالتحلل ، فالتوبة النصوح المتعلقة بحقوق العباد لابد من التحلل من أصحابها في المظالم والأموال وغير ذلك ،

- حكم شاتم الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

لكن شاتم الرسول – عليه الصلاة والسلام – كافر والعلماء اختلفوا في قبول توبته ،هل إذا تاب وأناب يُعفى عنه أم لابد من قتله قصاصاً كما قاتل النبي – عليه الصلاة والسلام – ،أناس كانوا يستهزئون به ويشتمونه ؟ خلاف بين العلماء ، إذاً عندنا التوبة أحياناً لا تقبل التوبة من التائب فيما بينه وبين الناس فإننا لا نقبل توبته بل نكل أمره إلى الله ونتجنبه ،

- توبة المبتدع :

المبتدع كثير من الناس كانوا مبتدعة وتابوا وأصلحوا وصاروا من أعلام السنة هذا موجود ، لكن إذا تاب من البداية فإننا لا نرجع إليه بسرعة بل ننتظره نمهله ، من السلف من قال : يمهل سنة ، منهم من قال: لا يقبل له توبة أساساً لا سنة ولا أكثر يهجره ويبتعد عنه ويتركه وشأنه ، فهذا هو كلام أهل العلم في توبة المبتدع أنه بينه وبين الله لا يمنعه أحد من التوبة بشروط التوبة البيان والإصلاح والإقلاع والندم ، وأما بيننا وبينه فنحن نحتاط لديننا ونخشى أن ينقلب علينا فحينئذ نحذر منه ونمهله فترة حتى يَبِين أنه استقام ، فإذا بانت استقامته كما فعل عمر –رضى الله عنه – مع صَبِيغْ والله أعلم .

[المتن]

قال الشيخ حافظ – رحمه الله تعالى – في السؤال الحادي والتسعين بعد المئة



متى تنقطع التوبة في حق كل فرد من أفراد الناس؟

الجواب قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾[1]

أجمع أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن كل شيء عصي الله به فهو جهالة سواء كان عمدا أو غيره وأن كل ما كان قبل الموت فهو قريب وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ" ثبت ذلك في أحاديث كثيرة فأما إذا عاين الملك وحشرجت الروح في الصدر وبلغت الحلقوم وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذ ولا فكاك ولا خلاص ولات حين مناص وذلك قوله – عز وجل – عقب هذه الآية

قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾[2]

[المتن]

ثم قال: – رحمه الله – السؤال الثاني والتسعين بعد المئة

متى تنقطع التوبة من عمر الدنيا؟

---

[1] - النساء: 17
[2] - النساء:18

قال في الجواب : قَالَ تَعَالَى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[1] الآية

وفي صحيح البخاري قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لَا تَقُوْم الْسَّاعَة حَتَّى تَطْلُع الْشَّمْس مِن مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَت وَرَأَهَا الْنَّاس آَمَنُوْا أَجْمَعِيْن وَذَلِك حِيْن لَا يَنْفَع نَفْسا إِيْمَانُهَا " ثم قرأ الآية وقد وردت في معناها أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في الأمهات وغيرها وقال صفوان بن عسال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إِن الْلَّه فَتَح بَابا قَبْل الْمَغْرِب ،عَرْضِه سَبْعُوْن عَام لِلْتَّوْبَة لَا يُغْلَق حَتَّى تَطْلُع الْشَّمْس مِنْه "رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة في حديث طويل .

[الشرح]

بين – رحمه الله تعالى – أن التوبة لها أجل ،وبعض العلماء يذكر هذا الأجل والمنتهي من شروط التوبة فيزيدون في شروط التوبة غير الشروط المشهورة الأربعة

- الشروط التوبة:

الإقلاع عن الذنب ، والندم على ارتكابه ،والعزم على ألا يعود أبدا، ورد المظالم إلى أهلها فيزيدون شرطين الشرط الأول الإخلاص الشرط السادس و هو الثاني الزائد هو أن يكون في وقت المهلة

- أنواع الآجال :

ووقت المهلة هناك وقت عام لجميع الناس ووقت خاص، فالوقت الخاص هو المتعلق بكل شخصا على حدى وهو قبل الموت ما لم تصل روحه إلى حلقومه ،فإذا وصلت الروح إلى الحلقوم لا تُقبل التوبة ،فإذا كانت الروح تنتزع شيئا فشيئا من جسده ووصلت إلى صدره وتاب قبل أن تصل روحه أي

[1] - الأنعام : 158

نهاية الروح إلى الحلقوم ما دام أنها وصلت لم تصل إلى الحلقوم وإلى الغرغرة فإن التوبة مقبولة فالإنسان يبادر قبل أن يداهمه الموت ،فلا يستطيع إلا الندم حينئذ على ما فرط من ترك التوبة ولا ينفعه قول ولا عمل حينها ،لأنه لا يمكن الخلاص وفرعون لما وصلت روحه إلى حلقومه : ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [1] فقال الله له ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [2]

الله – جلا وعلا – لم يقبل توبة فرعون مع أنه لا يمتنع عن قبولها من أي أحد من الناس أومن خلقه ولكن قد بلغت الروح الحلقوم ،فحينئذ لا تقبل توبته ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [3]

والنوع الثاني من الآجال الأجل العام، الذي لجميع الناس حتى لو لم تصل أرواحهم إلى حلاقيمهم، وهذا عند طلوع الشمس من مغربها، في ذلك اليوم تظهر آيات وعلامات تدل على انقطاع التوبة، وانتهاء أجلها، فإذا حصل ذلك اليوم، وتلك العلامات، تنقطع حينئذ التوبة ولا تقبل، بل يختم لكل إنسان على ما عمل ،بل يختم لكل إنسان على ما عمل، من إيمانٍ، أو كفر ،أو معصية، وهذه

[1] - يونس : 90
[2] - يونس : 91 - 92
[3] - يونس : 91 – 92
4- النساء:17

+ تنبيه هام: هذا التفريغ ليس قابل للنشر، فلم يعتمد من الشيخ – حفظه الله– بعد، فمن وجد خطأ نرجو تنبيهنا عليه فوراً .



الآيات أبرزُها وأظهرها هو طلوع الشمس من مغربها، وفي آيات أخرى يأتي ذكرها إن شاء الله تعالى بعد قليل

[المتن]

يقول الشيخ – رحمه الله – مبينًا هذا الجواب عن هذا السؤال

_متى تنقطع التوبة في حق كل فرد من أفراد الناس؟

فقال – رحمه الله – : قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ 4

يعني إن الله – جل وعلا – يقبل توبة التائبين وحقا عليه – جل وعلا – ألزم به نفسه، وهو–سبحانه وتعالى – يوفي بوعده فقال إن الله – جل وعلا –

قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾[1] فعملهم للسوء كان عن جهالة

- مال المراد بالجهالة في الآية ؟

وليس المراد بالجهالة الغفلة عن الحكم، لأن الإنسان إذ لم يدرِ الحكم وأخطأ فيه ،فإن الله – جل وعلا– يَعْذره إذا كان مثله يعذرُ فإذا لم يعلم الحكم ولم يكن الحكم منتشراً وواضحاً ولا هومن معلوم من الدين بالضرورة فهذا يُعْذرُ ،لكن المقصود هنا بجهالة وهو يجهل حق الله جل وعلا في ترك المعصية، غفل عن هذا الامر، فكل معصية إنما يقوم بها العبد بجهالة لذلك قال الشيخ بعدها أجمع أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم – إن كل شيء عصي الله به فهو جهالة سواء كان عمدا أو غيره فالمراد هنا يعملون السوء بجهالةٍ يعني أنهم جهلوا على أنفسهم، ليس جهلوا الحق أو لم يعرفوه ، لكن جهلوا على انفسهم يعني ارتكبوا ما يضرهم لأن العاقل يعقل نفسه عن هداها وخلافه الجاهل

[1] - النساء : 17



،العاقل والعال وصاحب اللُب هو الذي يمنع نفسه عما يضرها ،

- الجاهل عدو نفسه :

لكن الجاهل هو عدو نفسه ،لذلك الذي يعصي وهو يجهل، فجهل على نفسه، وهذا هو معناه قول الرسول – عليه الصلاة والسلام – في دعاء الخروج من المنزل أو أجمع الحكم الشرعي " أَعُوْذ بِك أَن أَجْهَل " يعني على أحد و أضره لأن هذا يضرني في نفسي " أَو يُجْهَل عَلَي " يعني أن يصيبني غيري بضرر وهو جاهل ما يضر ذلك الشخص ما يضره فهذا معنى بجهالة

- تفسير السلف في قول الله – عز وجل – : ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يعني قبل الموت وهذا هو يتعلق بكل شخص من قريب يعني ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما – فيما خرجه ابن جرير وابن ابي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس وهذا إسناد لا بأس به وقد تواردت عبارات السلف في تفسير قول الله – جل وعلا – ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أنه قبل الموت وقد قال الضحاك "كل شىء قبل الموت فهو قريب له، فهو قريب له ،التوبة ما بينه وبين أن يعاين ملك الموت فإذا كان حين ينظر إلى ملك الموت فليس له ذاك " وقال عكرمة " الدنيا كلها قريب ما دام أنه لم يمت والمعاصي كلها جهالة " وقال الحسن البصري – رحمه الله – " ثم يتوبون من قريب قال ما لم



يغرغر، مالم يغرغر " يعني أنه تصل الروح إلى الحلقوم قال الله – جل وعلا –

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾[1] يعني الذين يتوبون قبل الموت

فهؤلاء يتوب الله عليهم ويصفح عن زلاتهم و يتجاوز عنهم إذا أدوا التوبة بشروطها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾[1]

- التوبة توفيق من الله – عز وجل – :

يعلم من يتوب و من يستحق التوبة و من يهدى لها ،حكيم في أفعاله و في أقداره – جل وعلا – وهذا يبين لنا أن الله – جل وعلا – يوفق من يشاء للتوبة وليس كل الناس تتوب مع سهولة هذا الأمر لكن لابد أن يعلم الناس أن الله – جل وعلا – هو الذي يصطفي هؤلاء التائبين ،و يقدر لهم التوبة فلذلك يفرح العبد بتوبة الله – جل وعلا – عليه يفرح العبد أن وفقه الله – جل وعلا – للإستغفار و التوبة و الندم ،هذا فضل من الله فلذلك الإنسان دائما يتوكل على الله – جل وعلا – و يلتجيء إليه و ينطرح بين يديه لعل الله – جل وعلا – أن يتوب عليه و أن يوفقه للتوبة .

و قال النبي – صلى الله عليه و سلم – : " إِن اللَّه يَقْبَل تَوْبَة الْعَبْد مَا لَم يُغَرْغِر "

- طرق الحديث :

و هذا الحديث له طرق و قد خرجه الترمذي و ابن ماجة و قبله خرجه الإمام أحمد في مسنده و خرجه ابن حبان في صحيحه و خرجه الحاكم في المستدرك، في أئمة كثر خرجوا هذا الحديث وهو حديث حسن و له شواهد و قد أجمع عليه العلماء كما قال النووي – رحمه الله – : " و قد أجمع العلماء – رضي الله عنهم – على قبول التوبة ما لم يغرغر" فهذا مما لا شك فيه .

[1] - النساء : 17



- التوبة معلقة حال الحياة :

قال ثبت ذلك في أحاديث كثيرة أن التوبة معلقة في حال الحياة حال القدرة على العمل أما إذا بلغت الروح الحلقوم خلاص انتهى الأمر ،و حديث اليهودي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عاده و هو في فراش الموت فقال له أسلم فالتفت الغلام وهو كان يخدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى أبيه فقال له أبوه أطع أبا القاسم فأسلم ودخل الجنة وهو على فراش الموت.

- التوبة لا تقبل حال الموت :

و فرعون وهو على بحر الموت لما أراد أن يغرق تاب توبة بلسانه ،لكن قد بلغت الروح الحلقوم و قد كان جبريل – عليه السلام – حينها يأخذ من طين البحر و يدسه في فم فرعون حتى لا تدركه رحمة رب العالمين ومعلوم أن الملائكة لا يفعلون شيئا إلا بإذن ربهم .

[الشرح]

قال : فأما إذا عاين الملك في بعض الكتب في الإسرائيليات أنه عزرائيل ولكن هذا لا يصح عن الرسول – صلى الله عليه و سلم – ولكن هو مما يحكى عن أهل الكتاب و لا حرج و لا يصدقون و لا يكذبون فيه قال : وحشرجت الروح في الصدر – يعنى انحشرت فيه و اجتمعت فيه و هذا كناية

عن قرب خروجها– وبلغت الحلقوم – الحلق معروف– وغرغرت النفس – لأن الميت إذا



بلغت روحه إلى حلقه أصبح عنده مثل الغرغرة لأن روحه تريد أن تخرج مثل الغريق لأنها كانت غارقة في البدن و تريد أن تخرج صاعدة في الغلاصم الغلاصم يعني الحلق و قيل اللحم فلا توبة مقبولة حينئذ ،يعنى حين أن تبلغ الروح الحلقوم، إذا قيل الغلاصم يعنى الغلصمة رأس الحلقوم وهو الموضع الناتيء في الحلق عند القصبة الهوائية، الموضع الناتيء في الرقبة من الأمام وقيل أن الغلصمة اللحم الذي بين الرأس و العنق يسمى غلصمة مرد ذلك إلى الحلقوم قال فلا توبة مقبولة حينئذ ولا فكاك ولا خلاص ولات حين مناص يعني حين لا توبة و لا أوبة ولا انفكاك عن ما هو فيه ،و لا خلاص هذا معنى مناص - وذلك قوله عز وجل عقب هذه الآية ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ . قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾[1] الآية.

فالذي يتوب إذا حضره الموت وهو حين الغرغرة لاتقبل توبته ،فإن الله ـ جل وعلا ـ لا يعده بقبول التوبة بل نص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أن التوبة لا تقبل حينئذٍ ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[2] لأنهم ماتوا على كفرهم .

[المتن]

ثم قال– رحمه الله– : متى تنقطع التوبة من عمر الدنيا ؟ حتى ولو كان الإنسان حيًا قويا لم تبلغ

[1] - النساء : 18
[2] - النساء : 18

روحه حلقومه قَالَ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ

 [1].

[الشرح]

نفى الأمرين نفى صحة الإيمان انعقاد الإيمان بعد عدمه ،ونفى زيادة العمل في الإيمان الذي لم يكن قد عمله من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا

- طلوع الشمس من مغربها يغلق باب التوبة :

فهذا الكسب بعد طلوع الشمس من مغربها إذا وَلَّدَه النظر إلى غروب الشمس وشاهدت هذه الآية إن كان هو السبب في هذه الزيادة لم تقبل هذه الزيادة بهذا السبب ،مادام أن السبب هو وجود هذه الآية وهذه الآيات قد اختلف العلماء فيها مع اتفاقهم على أمر واحد متفقون عليه ،واختلفوا فيما عداه واتفقوا على أن المراد ببعض آيات الله ـ جل وعلا ـ التي إذا رآها الناس لم ينفع إيمانهم حينها ولا ما كسبوا فيه أنها طلوع الشمس من مغربها .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : أي إذا أنشأ الكافر إيمانا يومئذ لا يقبل منه فأما من كان مؤمنا قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو في خير عظيم وإن كان لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [1].

أي لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك" يعني الإنسان إذا عمل الصالحات أُجر عليها حتى بعد طلوع الشمس من مغربها ،لكن إذا كان فعل هذه الأعمال الصالحات بسبب الآية فإنه لا يؤجرُ عليها وإذا تاب لا تقبل توبته ،وقد ختم على صحيفة عمله إيمانٍ أو كفر بفسقٍ

[1] ـ الأنعام : 158



أو طاعة وهذا عامٌ في جميع الناس حينها.

[المتن]

قال ـ رحمه الله ـ : وفي صحيح البخاري قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم ـ : " لَا تَقُوْمُ الْسَّاعَةَ حَتَّى تَطْلُع الْشَّمْس مِن مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَت وَرَآهَا الْنَّاس آَمَنُوْا أَجْمَعُوْن وَذَلِك حِيْن لَا يَنْفَع نَفْسا إِيْمَانُهَا " ثم قرأ الآية .

[الشرح]

وهذا الحديث خرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

علامات أخرى لا يقبل العمل بعد ظهورها :

وهناك آيات أخرى جاء النص بها أنها إذا وقعت أيضاً خُتم على العمل ،فخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ثُلَاث إِذَا خَرَجْن لَا يَنْفَع نَفْس إِيْمَانُهَا لَم تَكُن آَمَنَت مِن قَبْل أَو كَسَبَت فِي إِيْمَانِهَا خَيْرا طُلُوْع الْشَّمْس مِن مَغْرِبِهَا وَالْدَّجَال وَدَابَّة الْأَرْض " أما طلوع الشمس من مغربها فهذا ظاهر وأن باب التوبة يُغلقُ حينها .

والثاني وهو دابة الأرض ،أكثر العلماء على أنها تخرج بعد طلوع الشمس من مغربها ،فَتَسِمُ الناس على خراطيمهم حتى يقول الناس اشتريت من الرجل المختوم، تختم الكافرين وتجرحهم .

- دابة الأرض آية من آيات الله – عز وجل – :

والثاني وهو دابة الأرض: أكثر العلماء على أنها تخرج بعد طلوع الشمس من مغربها فتسم الناس على خراطيمهم وحتى يقول الناس اشتريت من الرجل المختوم تختم على الكافرين وتجرحهم الثالث وهو الدجال :فهو الذي يعني قد يكون هنا إشكال لأن خروج الدجال يكون قبل طلوع الشمس



من مغربها ويكون من أوائل الأيات العظام

- أول العلامات الكبرى ليوم القيامة وآخرها:

لأن أول الآيات الكبرى هو خروج النار من المشرق تحشر الناس إلى المغرب ، أولها نار وأخر الآيات النار لتي تخرج من نهر عدن تحشر الناس إلى الشام ،أول الآيات التي من المشرق يخرج بعد ذلك حين تحصل الملحمة العظمى والمهدي يكون قائد جيش المسلمين حينئذ

- خروج الدجال علامة على أنه لا ينفع الإيمان حينها :

ثم يأتي الدجال ويطوف في الأرض ثم ينزل عيسى – عليه السلام – ،في هذا الوقت كله يكون قبل طلوع الشمس من مغربها في أوائل الآيات ويكون هلاك يأجوج ومأجوج كله قبل طلوع الشمس من مغربها ،فلذلك هذا الحديث يدل على أن خروج الدجال أيضا علامة على أنه لا ينفع الإيمان حينها لأن الدجال يكون كثير التشكيك والتلبيس والخداع والمكر وما عنده من الخوارق ما تزيغ بسببه قلوب كثير من الناس ،فالذي لم يكن آمن من قبل فإنه لا يزيدهم خروج الدجال إلا شكا وكفرا هذا الذي يظهر لي عند هذا الحديث والله أعلم

[المتن]

قال وقد وردت في معناها أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في الأمهات وغيرها

[الشرح]

يعني أن التوبة منوطة بطلوع الشمس من مغربها ،وأنها إذا رآها الناس آمنوا

من ذلك حديث أبي ذر – رضي الله عنه – قال : " أَن الْنَّبِي صَلَّى الْلَّه عَلَيْه وَسَلَّم قَال يَوْما أَتَدْرُوْن أَيْن تَذْهَب هَذِه الْشَّمْس قَالُوْا الْلَّه وَرَسُوْلُه أَعْلَم قَال إِن هَذِه تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْت

الْعَرْش فَتَخِر سَاجِدَة فَلَا تَزَال كَذَلِك حَتَّى يُقَال لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِن حَيْث جِئْت فَتَرْجِع فَتُصْبِح طَالِعَة مِن مَطْلِعِهَا ثُم تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْت الْعَرْش فَتَخِر سَاجِدَة وَلَا تَزَال كَذَلِك حَتَّى يُقَال لَهَا ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِن حَيْث جِئْت فَتَرْجِع فَتُصْبِح طَالِعَة مِن مَطْلِعِهَا ثُم تَجْرِي لَا يَسْتَنْكِر النَّاس مِنْهَا شَيْئا حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاك تَحْت الْعَرْش فَيُقَال لَهَا ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَة مِن مَغْرِبك فَتُصْبِح طَالِعَة مِن مَغْرِبِهَا فَقَال رَسُوْل الْلَّه صَلَّى الْلَّه عَلَيْه وَسَلَّم أَتَدْرُوْن مَتَى ذَاكُم ذَاك حِيْن ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[1] والله أعلم

[المتن]

قال : وقال صفوان بن عسال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إن الْلَّه فَتَح بَابا قَبْل الْمَغْرِب عَرْضُه سَبْعُوْن عَاما يعني يقبل توبة التائبين إذا تابوا ما دام هذا الباب مفتوحا لِلْتَّوْبَة لَا يُغْلَق حَتَّى تَطْلُع الْشَّمْس مِنْه " رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة في حديث طويل .

[الشرح]

حديث صفوان بن عسال هذا الذي ذكره – رحمه الله – حديث طويل ،وفيه فوائد عظام وهو حديث صحيح وإسناده قوي يعني إسناده ما بين التحسين والتصحيح عند العلماء وهومن طريق عاصم بن أبي النجود عن ذر بن حبيش عن صفوان وعاصم قوي ما بين الصحة والحسن يتراوح حديثه

- باب التوبة عريض :

فهذا الحديث يبين أن باب التوبة مفتوح ،وهو باب عريض عرضه سبعون عاما مسيرة سبعين سنة وهو مفتوح ما دام أن هذا الباب مفتوح فالتوبة مفتوحة ،فإذا طلعت الشمس من هناك أغلق هذا الباب

[1] - الأنعام : 158



والله – جل وعلا – جعل هذا الباب علامة وأمارة لأجل أن يستعد الناس وأن يدركوا هذا الباب قبل أن يغلق ،ولا يعلم صفته وهذا من الغيب التي أستأثر الله – جل وعلا – بها ومن

- حكمة الرب في جعل باب التوبة جهة المغرب :

حكمته أنه جعله في المغرب ،وجعل علامة إغلاقه طلوع الشمس من جهته ،فهذا الباب دائما يستقبل الشمس في الغروب فإذا جاءت من خلفه طالعة أغلق هذا الباب وانتهى يعني أمده أن يكون مفتوحا يغلق وقد ورد عن جماعة من الصحابة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " لَا تَزَال التَّوْبَة مَقْبُوْلَة حَتَّى تَطْلُع الشَّمْس مِن الْمَغْرِب فَإِذَا طَلَعَت طُبِع كُل قَلْب بِمَا فِيْه وَكُفِي الْنَّاس الْعَمَل " وقال – صلى الله عليه وسلم – : " مَن تَاب قَبْل أَن تَطْلُع الْشَّمْس مِن مَغْرِبِهَا تَاب الْلَّه عَلَيْه " وقال – صلى الله عليه وسلم – : " إِن الْلَّه يَبْسُط يَدَه بِالْلَّيْل لِيَتُوْب مُسِيْء الْنَّهَار وَيَبْسُط يَدَه بِالْنَّهَار لِيَتُوْب مُسِيْء الْلَّيْل حَتَّى تَطْلُع الْشَّمْس مِن مَغْرِبِهَا "

- أقوال السلف في طلوع الشمس من مغربها :

وقال غير واحد من السلف إذا طلعت الشمس من مغربها طبع على القلوب بما فيها وترفع الحفظة وأمر الملائكة ألا يكتبوا عملا يعني من الصالحات وإلا أن أمر السيء يكتب على صاحبه والأمور تكتب ،بمعنى أنها قد تبرأ بها الذمة لمن عملها لكن يعني قد يقال هذا لكن الصحيح أنه يعني كما قاله أهل العلم أنه لا ينفع أي عمل وقال من قال من السلف أن الحفظة يعني لا يكتبون أي شيء من العمل ليحسب للعبد لأنه قد ختم على عمله ،وقال سفيان الثوري:" إذا طلعت الشمس من مغربها طوت الملائكة صحائفها ووضعت أقلامها".

- نصيحة لكل مسلم :

فلذلك يجب على الإنسان أن يبادر إلى التوبة ،وأن يَؤوب إلى الله – جل وعلا – ويتوب وألا

يتساهل في أمر التوبة فإن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت ،ومتى يأتيه أمر ربه لذلك فالإنسان يحرص على المبادرة إلى التوبة ويحرص على اغتنام وقته بالعمل الصالح ،والإكثار من الخير وأعمال الإيمان حتى لا يأتي اليوم الذي يختم فيه على قلبه وعمله فلا يستطيع أن يعمل صالحا وهو يرد ذلك .

فنسأل الله – جل وعلا – أن يوفقني وإياكم لما فيه الخير والصلاح، وأن يتوب علينا وعليكم، وأن يجعلنا مِن مَن وفق إلى التوبة قبل حلول الأجل، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد والحمد لله رب العالمين .